لا تكاد تغيب عن سمعك حتى تعود إليه رنانة صافية ، ويستبين لك أنك تجوز فى سيرك بين وقت ووقت بحياض ، صنعت من جذوع الشجر ، تتلقى ماءها من صنابير لا ينقطع لها ورد ، وإن هذه الحياض لتظل زاخرة بمائها تبعث بما يفيض عنها إلى قنوات متعرجة ، وإن هذا الماء الفائض ليتسلل فى أنحاء الغابة هادئاً رقراقا خفياً كما تتسلل الأسرار من قلوب المحبين .

على هذه الحياض يتلاقى الظماء من رواد الغابة ، ليبلوا صداهم بما يفاض عليها من ماء فرات ، وحول هذه الحياض يتجمع الرفاق ، مفترشين العشب ، ليصيبوا ما شاءوا أن يصيبوا من طعام .

ويطيب لك أن تضرب فى مناكب ذلك البلد ، تجوب طرقاته ، وتمر بحوانيته ، وتزور ما هنالك من فنادق ومشارب وأندية ... وتختار لجلوسك بعد طول الطواف مشرباً له شرفة مرتفعة فى الميدان : قلب المدينة النابض ، فمن هذا الميدان تنشعب الطرق إلى مختلف النواحى والجهات . ومن التجوز أن أقول « الميدان » ، فإن رقعته لا تزيد على بهو من الأبهاء فى قصور السراة الغابرين ، وإذا قلت إن هذا الميدان « قلب المدينة النابض » فإنما أعنى قلباً ساذجا ، من قلوب العذارى ، أو قلوب الأطفال !...